المبدأ الصوفي وعلاقته بالشعر الحديث

ربما حالفني السداد إذا ما زعمت بأن الصوفية ليست شيئاً واحداً أو متجانساً في كل زمان ومكان، أو في جميع الثقافات والبلدان. فمما هو موضوعي تماماً أن ثمة من الصوفيات بمقدار ما هنالك من الأمم والحضارات، بل حتى بمقدار ما هنالك من الأفراد المنتسبين إلى أي تيار من التيارات الصوفية الكثيرة والمتباينة في بعض الأحيان.

فمما هو شائع أن رابعة العدوية قد تفردت بالحب الإلهي في أشعارها التي أسست الكتابة الصوفية، أو النص الصوفي الذي لم يكن مألوفاً قبل تلك المرأة المترعة بالفذاذة والطاقة الابتكارية. وتفرد المحاسبي الذي ترك آثاراً واضحة على الغزالي بل على كل صوفية تنزيهية، بمحاسبة النفس وتزكيتها كشرط أولى. للحصول على المطلوب، أو للبلوغ إلى غاية الغايات. وتميز النفري بأسلوبه الشعري ومواقفه ورؤاه الاختراقية المنبثقة من طاقة حدسية إلهامية أو استشرافية. وتخصص الغزالي، الذي أراه ذروة الصوفية النقية أو الناجية من كل شوب، بتقديس الفؤاد البشري والكشف عن سماته الاستسرارية، وكذلك عن بداهته وقدرته على استيعاء الذوقي، وكل ما هو من فصيلة الزكانة، وكذلك ما ينتسب إلى مملكة المستورات والأسرار.

ولقد راح السهروردي الحلبي يجل النور والإشراق ويؤكد على أن المعرفة نور يبزغ في النفس بعد مجاهدة طويلة. وفي هذا المذهب ثمة أثر بوذي لا يخفى على أهل الحضور. ولكن السهروردي البغدادي، صاحب "عوارف المعارف"، والمتأثر بالغزالي إلى حدٍ ما، قد نزع نحو الخبرة بالنفس والدراية بأدرانها وأمراضها وكيفية تخليصها من رعوناتها وكدوراتها، وذلك ابتغاء إعدادها للكشف عن الحقيقة الجوهرية والاتحاد بها على نحو حميمي أصيل. ولكم أجاد ذلك الرجل النادر حين جعل من الوجود مركزاً للتصوف كله. وما أحسن قوله: " نور الكلام على قدر نور الفؤاد".

أما مدرسة ابن عربي، أو المدرسة الأندلسية التي أسسها ابن مسرة القرطبي، والتي ترتكز على مبدأ وحدة الوجود، فقد نزعت إلى المفاهيم والمبادئ المجردة الشديدة التعقيد في كثير من الأحيان، حتى ليجوز الحديث عن مذهب فلسفي لدى الشيخ الأكبر. (أظن أن أهل التصوف، في صراعهم ضد الفلسفة قد سموا ابن عربي باسم الشيخ الأكبر عمداً، وذلك رد فعل منهم على تسمية أهل التفلسف لابن سينا باسم "الشيخ الرئيس". فمن المعلوم أن الصوفية كانت تناضل على جبهتين: جبهة الفلاسفة وجبهة الفقهاء).

وهذا كله يعني أن الصوفية العربية حصراً ليست شيئاً واحداً متجانساً تمام التجانس. أما القول بوحدتها فلا يتأتى إلا من الأرضية المشتركة التي تلتقي عندها جميع الاتجاهات والنزعات المتباينة، ولاسيما مقولتي الكشف والاتحاد اللتين هما ركيزتان كبريان من ركائز الصوفية العربية.

وقد يصح الذهاب إلى أن الصوفية في الثقافة الأوربية مفهوم يعني الغموض، أو حتى الانبهام المعّمى الذي لا سبيل إلى استكناه فحواه أو استنفاد محتواه وتيسيره أمام الذهن المتأمل الممّحص. أما الصوفية العربية فهي شيء مختلف تماماً، إذ إنها لا تقل عن كونها انكشاف الموجود البشري بوصفه كائناً يعبد السمو أو العلو. فلئن كانت الصوفية الأوربية هي الغوص في الغموض، فإن الصوفية العربية هي الرغبة في العروج إلى سدرة المنتهى، أو إلى " حيث لا حيث "، على حد عبارة ابن الفارض. والمعراج مقولة كبرى من مقولات ابن عربي.

إذن، انكشفت الصوفية العربية بمحتوى مغاير للمفهوم الصوفي الأوربي، وذلك في الموروث المكتوب منذ قصائد رابعة العدوية في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي، وحتى الشرح النفيس الذي أنجزه ابن عجيبة الفاسيّ لحكم ابن عطاء الله السكندري، أي طوال ألف سنة أو

أكثر بقليل. (والجدير بالتنويه في هذا المقام أن كتاب "إيقاظ الهمم في شرح الحِكم" هو نص صوفي متميز جداً، بل هو واحد من أجود المنجزات الثقافية التي أنجزتها اللغة العربية في مسيرتها الكتابية الطويلة).

أما لب الصوفية، أقصد الصوفية العربية التراثية حصراً، فهو الحنين الدافئ إلى حقيقة كلية نائية وغائبة في آن واحد. ويتلخص جل الجهد الذي يبذله المتصوف، سواء أكان شاعراً أم لم يكن، في التوجه الصادق إلى تلك الحقيقة السرية بالطلب والمخاطبة والمناشدة والابتهال والتوسل، وأحياناً بالحوار والدوران حولها بعد اتخاذها مركزاً تطوف اللغة به كما يطوف الفطيم حول ثدي أمه. وهذا يعني أن الصوفية هي فن الدنو من الساميات، أو فن الاقتراب من إشباع صبوة ديمومية أصلية تستتب في نواة الروح البشري حصراً. ثم إنها لا تقل عن كونها ميلاً إلى الاتصال في العمق وبالعمق، أو بمركز المراكز قاطبة.

فالنبل، أو السمو الناجم عن الطهر والبراءة، ذاك هو بالضبط ما سوف يبحث عنه الإنسان بعامة لو أنه تمكن من أن يتخلص من حاجاته المادية التي تكبله حتى العياء وتمرغه في حمأة المياومة السمجة والتجربة العملية الضيقة، وهذا هو ما تبحث عنه الصوفية النقية العالية والناجية من كل خبث وفساد. إنها لا تقل عن الرغبة في أن تنهل النفس من ينبوع الينابيع كلها. وبذلك يتم الانفلات من ربقة المستنبات الجامدة باتجاه سيولة الحرية والانطلاق صوب النائيات، أو صوب المساحات المفتوحة التي تجهل السدود والحدود. فالصوفي يلوب على قيمة ذاتية لا معنى للوجود من دونها بتاتاً. ولعل الحرية أن تكون أولى سمات تلك القيمة، أو تلك الحقيقة العليا التي هي الغاية النهائية للروح.

لقد راح البسطامي يعرف التصوف بأنه "الخروج من ضيق الحدود الزمانية إلى سعة فناء السرمدية" ولعمري أن هذا التعريف هو الأدق بين جميع التعريفات التي حاولت أن تحد التصوف أو أن تبين صميمه وحقيقة كنهه، ولدى الاستناد إلى هذا التعريف، فإن التصوف لا يقل عن كونه ضيق الإنسان بتجربته العملية وواقعه المباشر، أو هو لا يقل عن كونه ثورة على كل ما هو محدود أو محكوم بالقوانين التي من شأنها أن تكبل الحرية. وبإيجاز إن التصوف هو ثورة الحرية الروحية، أو ثورة الروح الحر.

وعلى هذا المبدأ الوجداني قد يتيسر أن تنشأ صوفية ليست متدينة، وذلك لأن الهدف هو تزكية النفس، أو البلوغ إلى النبل الراخم في صميم الروح حصراً، وإن كانت مثل هذه الصوفية مبتسرة أو مثلوبة بنقص كبير. وهذا يعني أن المبدأ الأخلاقي، أو مبدأ المناقب الحميدة، الذي رسخه المحاسبي في "الرعاية لحقوق الله"، وهو أقدم كتب النثر الصوفي كلها، قد ظل الأساس الذي يؤسس التيار الأنقى بين جميع التيارات الصوفية بأسرها.

بيد أن الفكرة التي ينبغي التأكيد عليها دون كل أو ملل من شأنها أن تتلخص على هذا النحو: إن البحث عن السر الكوني لا يكفي لصياغة المبدأ الصوفي العربي، إذ لا محيد عن أمرين، وهما (1) رؤية السر بوصفه السمو أو العلو والطهر والبراءة (ففي الشرق لا بد من الوجد والوجدان وتزكية النفس وتطهير الباطن)، (2) الميل إلى الاتحاد بالسر نفسه، لأن ذلك الاتحاد وحده هو خشبة الخلاص أو النجاة من افتقار الأشياء إلى المغزى والدلالة. ولعل في ميسوري أن أعرف الاتحاد الصوفي بأنه نفي التغاير واستلاب الفروق ومحو الفواصل والمسافات، وذلك ابتغاء التماثل مع الحق الكلي المطلق. وفي هذه الحال فقط تكون هنالك صوفية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة الفضفاضة. وهذا يعني أن "الاتحاد" هو المقولة المركزية في التجربة الصوفية بأسرها.

فليس بكافٍ أن يلتمس المرء سراً من الأسرار كي يحشر في زمرة الصوفيين، إذ لا بد من الرغبة في الاتحاد بذلك السر نفسه كي يكون هنالك تصوف كامل، أو غير مبتسر. يقول ابن الفارض في التائية الكبرى:

لها صلواتي في المقام أقيمها وأشهد فيها أنها لي صلت

إنها إلهي المطلقة، أو الحقيقة الكلية الشاملة السامية التي يسعى الصوفي جاهداً طوال عمره بغية الاتحاد بها والتماهي معها إلى أبد الآبدين وهذه هي الصوفية في مستواها المثالي فعلاً، أو بتمامها وكمالها، ودون أي نقص أو اختزال.

* * *

ولدى البحث عن صلة متينة بين الشعر والصوفية (على غرار ما فعل كولن ولسن)، فإنني لا أرى في الشعر الحديث صوراً يسعها أن تتطابق مع المفهوم الصوفي العربي المعروض في هذه العجالة بشيء من البساطة والسرعة والاختزال. وفضلاً عن ذلك، فإنني لا أرى في الشعر الحديث صوراً تتمتع بالقدرة على الخطف والخلب، أو تملك أن تخلق شعوراً بالنشوة، اللهم إلا أن يكون ذلك على ندرة وحسب، وهذا على النقيض من الشعر القديم الذي لا تعجز صوره عن التأثير في أعماق المرء والمكوث هناك إلى أجل مديد. فصور الشعر الحديث تجريدية في الغالب الأعم، أو جانحة صوب الانسياح الحر الذي قلما تضبط الرغبة في البلوغ إلى الروعة أو إلى الجلال.

وينبغي أن ننتبه لما فحواه أن وجود تناصّ بين شاعر حديث وبين بعض الصيغ الصوفية لا يعني البتة أن هذا الشاعر يجب تصنيفه في عداد الصوفيين، إذ لا يجوز ذلك إلا إذا تعمد أن يبحث عن الحقيقة الكلية السرية المتعالية الغائبة والاتحاد بها ابتغاء إضفاء المعنى على تجربة الكينونة، أو حتى على التنفس نفسه، وإلا فلا لزوم للحياة الجسدية التي لا تختلف كثيراً عن حياة الحيوان. إن وجود شذرات صوفية في أية قصيدة لا يعني البتة أنها نص صوفي، وهي لا يسعها أن تكون كذلك إلا إذا اتجه مناخها الشامل صوب السر الراخم وراء المادة، أو خلف الأشياء برمتها، وحتى من أجل الاتحاد بالحق أولاً وأساساً. وهو شأن يتم حقاً إذا سرى السر في النفس وشاع حتى لونها من داخلها بلونه الخاص. وهذا حادث يسعك أن تقول فيه انه تناغم الروح مع لب الكون ومحضه ويقين أمره، حتى لكأنه يتلاحم مع المحال أو مع اللامعقول.

وفي هذا الاتحاد ثمة خلاص للإنسان من تفاهة المياومة ورتوبها وصغار أمرها، وكذلك من ابتذال التجربة العملية وإنهاكها للنفس، ثم من ثقل المادة وافتقارها إلى ما يسوغ وجودها أمام العقل الممحصّ المتسائل وهذا هو السمو الذي من شأنه أن يكافح الاغتراب والسأم والتشيؤ، والذي أراه الغاية الجلى لكل تصوف بريء من التزوير والتشويه في هذه الدنيا بأسرها. فلا إنقاذ للذات من آفات الوجود إلا بالنزوح الدائم صوب الهناك، أعني صوب الحقيقة السرية الكلية الراخمة في المركز الذي تتراكز عليه جميع الدوائر دون استثناء. وهذه هي خلاصة النزعة الصوفية التي عرضها السهروردي البغدادي في "عوارف المعارف".

* * *

وقد تسمع بين الفنية والأخرى رأيا مفاده أن الشعر الحديث وثيق الصلة بالصوفية، ولكنه في حقيقة كنهه يشبه السريالية بعض الشبه أحياناً وينتمي إليها عن جدارة في أحيان أخرى. أما الصوفية العربية فهو بعيد عنها بعد الثرى عن الثريا. كما أن المسافة التي تفصل الصوفية عن السريالية هي مسافة فلكية، وإن تكن بينهما أرضية مشتركة صغيرة المساحة، وتتلخص في أن الظاهرتين تزيحان الكلام عن مقاصده المألوفة أو المنطقية.

فمن الافتئات على الحقيقة أن يذهب بعض الدارسين إلى أن الشعر الحديث هو مجلي من مجالي الصوفية، مع أن الذائقة السوية، أو الفطرة السليمة، يتوجب عليها أن تضع جملة من إشارات الاستفهام على هذا الشعر الذي لا يخلو من تهويم وتهويش. فالذي لا يجوز له أن يفوتنا جميعاً هو أن شطراً كبيراً جداً من الشعر الراهن مصاب بداء الضحالة الذي يسمونه عادة باسم السطحية. ويلوح لي أن الشاعر الحديث كثيراً ما يعكر اللغة ليوهم الآخرين بأن العكر هو العمق، مع أن العكر في جوهره ليس شيئاً آخر سوى العقم واللاجدوى.

نعم، بدلاً من العمق فإننا كثيراً ما ننال العقم والخواء، إذ إن عدداً كبيراً جداً من القصائد الحديثة لا يزيد عن كونه بحراناً تجريدياً لا قيمة له بتاتاً. فهو، على النقيض من الشعر الصوفي التراثي، لا يُعنى بالوجد والوجدان والرعشة الداخلية أو العاطفية إلا قليلاً. فالصدارة ههنا للخيال قبل سواه، أو لضرب من الخيال التشكيلي أو التصويري الذي لا يأبه كثيراً بالخطف أو بالأخذ إلى البعيد. وعندي أن الوجدان هو الينبوع الأول لكل أدب خالد في تراث الإنسانية. فلا غلوّ إذا ما زعمت بأن كميات كبيرة جداً من القصائد الحديثة ليست سوى لغو سوف تلغيه الأيام. وهذا يعني أن ذلك الشطر الخافت ليس صوفياً ولا سريالياً البتة، بل هو ليس شعراً بأي حال من الأحوال.

وبالمقابل، فإن الشعر الصوفي التراثي كثيراً ما يكون عظيماً وقادراً على الجذب والخلب، ولا يقوى على مثله إلا نفر يسير من شعراء هذا الزمان. وليقرأ المرء هذين البيتين، وهما لابن عربي، وليتساءل عن أي ند لهما في الشعر الحديث كله:

قمرٌ تعرض في الطواف ولم أكن　　بسواه عند طوافه بي طائفا
يمحو بفاضل برده آثاره　　فتحار لو كنت الدليل القائفا

ولست آخذ هذين البيتين اعتباطاً، بل إن ثمة في ديوان ابن الفارض من الشعر الفائق مالا يقوى على مثله إلا الأقوياء وحدهم. فخمريته الميمية المشهورة هي إنجاز صوفي منقطع النظير في الشعر التراثي كله. لقد صارت الخمرة صورة تجريدية موحية، أو روحاً خالصة وناجية من لعنة التجسد والمثول أمام الحواس:

صفاءٌ ولا ماءٌ، ولطف ولا هوا
ونورٌ ولا نار، وروحٌ ولا جسم

إنها الحقيقة الكلية العليا التي لا تقل عن كونها جمالاً ورهفاً ورغداً وجدانياً أصيلاً. وفي زعمي أنه ما من شاعر في هذه الأيام العجاف، يملك أن ينجز قصيدة لها هذا الحجم النوعي الذي تتمتع به هذه القصيدة الخمرية الخالدة، وذلك لأن مثل هذا الشعر ليس من طبيعة زماننا الموغل في المادية والجنوح صوب العلم اليقيني والتفكير المنطقي أو البرهاني. فمن الإجحاف أن تطالب المناطق الباردة بإنتاج النخيل، مثلاً، أو أن تطالب المناطق المدارية بإنتاج الزيتون، مثلاً آخر.

فلكل عصر شخصيته وطبعه الذي لا يملك أن يخالفه بتاتاً، إذ إن من عوائد الأشياء أن تطيع طباعها دون أي تذمر أو تردد.

* * *

ولست أطالب الشاعر الحديث أن يلتزم بالتقاليد الصوفية الموروثة، أعني بالرموز الصوفية التقليدية الراسخة في دواوين الشعراء الصوفيين، ولاسيما السهروردي الحلبي وابن عربي وابن الفارض والعفيف التلمساني، وذلك لكي يصح تصنيفه في الفضيلة الصوفية، ولكنني أطالبه بأن يبتكر صوفيته الخاصة إذا ما أراد أن يكون صوفياً حقاً. والمبتكر كائن مبدع يخلق البكارة أو العذرية الطازجة، ويقدر على الذهاب صوب كل ما هو يانع، أو من سلاسة الألطاف الحسنى.

ولكنني في ريب من قدرتنا على أن ننتج الشعر الصوفي اليوم ونحن نتخبط في ضحالتنا وفجاجتنا والابتسار الذي يأهل جوف شخصيتنا الشديدة الحاجة إلى الصقل والتهذيب. وليست هذه الضحالة من صنع الصدفة، بل هي نتاج لانحطاط طويل، وكذلك هي حصيلة لحياتنا الملهوجة أو قل المتحولة باستمرار والمحرومة من الاستقرار الدائم المريح. وهي كذلك من صنع تربيتنا التي قلما تطهى على نار لينة، والتي تسهم في إنتاجها مؤسساتنا الاجتماعية المفرغة من الداخل. وإذا ما أضفت إلى ذلك كله شدة اهتمامنا اليوم بالبضاعة وبالمال الذي هو وسيلة الحصول على البضاعة، أدركت لماذا كانت شخصيتنا خديجة أو معاقة النمو.

ويتضمن هذا كله عجز ثقافتنا المعاصرة عن أن تنتج الأهيف الأملد، أو الدماثة التي تنجبها الألطاف الحسنى. ولسوف يظل التضعضع، أو التفكك، الصفة السلبية الأولى لثقافتنا العربية الراهنة إلى أن يتم التفوق على هذه الفجاجة الرابضة في جوف الشخصية العربية اليوم. وعندي أن هذه الفجاجة هي أولى المثالب التي تثلب ذهننا الحديث في هذا الطور التاريخي المكروب. أما الأقدمون فهم على النقيض من ذلك كله، لأن حياتهم وقيمهم مستتبة راسخة، ولأن ميلهم إلى الروحانية أقوى من ميلهم إلى المادية. ولهذا، جاءت صوفيتهم تامة وأصلية ولا ينقضها شيء من الكمال الذي رآه الشيخ الأكبر غاية وجود الإنسان على الأرض.

* * *

ولعل في ميسور المهتم أن يلاحظ ما فحواه أن الصوفية التراثية يؤسسها مبدآن اثنان، وهما الرمز والحنين إلى النائيات، أو إلى ما يرخم وراء المسافة الفلكية. وفي شعر ابن الفارض ثمة الكثير من هذا الحنين إلى التعبد، ولاسيما في مطالع بعض قصائده، مثل قوله:

أوميض برق بالأبيرق لاحا أم في ربي نجد أرى مصباحا

أو مثل قوله:

هل نار ليلى بدت ليلاً بذي سلم أم بارق لاح في الظلماء من إضم

فوحده الشاعر الحساس، أو العاشق النادر القادر على العشق الأصلي، هو من يستطيع أن ينتج مثل هذا الشعر النفيس الذي تؤسسه المسافة والفرق، أو كون الماهية نائية مثل نجم العيوق.

وأحسبني على صواب إذا ما زعمت بأن ابن الفارض متأثر بالشريف الرضيّ في هذه الموضوعة حصراً. ولكن ما هو عندي من صميم الحق أن ابن الفارض يمثل استعادة لروح الشعراء العذريين الذين يؤسسهم هذا المبدأ: أنا أعشق، إذن أنا موجود على الأصالة. وليس من قبيل الصدفة أن الناس قد سموا ذلك الشاعر المتفرد تسمية تخصه وحده: "سلطان العاشقين". يقول في الكافية:

يحشر العاشقون تحت لوائي وجميع الملاح تحت لواكا

ويقول في التائية الكبرى:

وملك معالي العشق ملكي، وجندي ال معاني، وكل العاشقين رعيتي

وفي الصوفية التراثية يندرج رمزان كبيران لا تستهلكهما الشروح مهما تسهب أو تطول:

أولاً: ألهي المطلقة التي تدغم في ذاتها هوية المرأة وهوية "الحقيقة الكلية"، على حد عبارة ابن عربي. (ومما هو جدير بالتنويه أن هذه الحقيقة الكلية هي ما سوف يصير "الفكرة المطلقة" في فلسفة هيغل، وذلك بعد الشيخ بستة قرون، أو زهاء ذلك).

ثانياً: الخمرة الصوفية من حيث هي ماهية سرية ترمز إلى المتعالي المطلق الذي يأبى على كل حضور إلا بعد بذل الجهد الصوفي المضني. إنها ترمز للسر السرير الذي لا يبلغه إلا من قدس الله أسرارهم واختارهم لنعمته الروحية المفعمة بالحيوية ورغد الوجدان. وفي الحق أن هذين الرمزين البارزين هما الركيزتان الكبريان في شعر ابن الفارض الخالد العظيم، ذلك الشاعر الذي علمني درساً فحواه أن النص الأدبي، إذا لم يتزود برعشات الحنين، بالأشواق والأذواق والألطاف الحسنى، وإذا لم يكن من سلالة الصدق والدماثة والهيف، فإنه لا يملك أن يكون سوى اللاشيء وقد تجسّد، أو حضر، على هيئة مراوغة خادعة.

ولست أحسب أن شخصيتنا الراهنة تملك القدرة الكافية على إنتاج شعر صوفي أصلي قادر على التماسّ مع هذين الرمزين الكبيرين. ولا افتئات على الحقيقة إذا ما زعمت بأن التصوف ليس من طبيعة زماننا العلمي والشديد الميل إلى عبادة المال والاستهلاك، وإني لفي ريب من أن نكون قد خرجنا من عصر الانحطاط الذي دخلنا فيه مع سقوط الأندلس وسقوط الدولة المملوكية سنة 1517م، أو قبل ذلك بقليل. ويبدو أننا خرجنا من التاريخ قبل أن نخرج من الأندلس بل إن خروجنا من الأندلس هو نتيجة لخروجنا من التاريخ. ألم يؤكد ابن خلدون الحكيم أن الهرم إذ حل بالجسم الحي فإنه لا يرتفع؟

أما ما هو مطلوب على نحو ملحّ في هذه الفترة فهو ناقد ناضج يملك القدرة الكافية على استصدار حكم القيمة الرصين ولاسيما عبر المقارنة والصدم، وذلك ليبين لنا ماهية هذا الشعر الحديث، قبل الاشتغال بهويته الصوفية أو السريالية أو الرومانسية... الخ. فالقيمة أولاً، بل لا شيء يمكن له أن يكون أحق منها بالعناية والاهتمام. وعندي أن الناقد الناضج هو ذاك القادر على استصدار أحكام القيمة التي لا تنقصها استطاعة الصمود في وجه الهجمات الصقرية حين يشنها معاند أو مشاكس هوايته المماحكة أو ممارسة النقض والتدمير. ولكن عصرنا الجانح صوب إنتاج النذالة بدلاً من الأصالة سوف لن يتمكن من أن ينجب هذا الناقد المحنك المطلوب، ناهيك بأن ننتج تياراً عارماً من النقود الأدبية التي لا تعوزها الكفاءة، ولا الفذاذة، أو القدرة الكافية على استصدار أحكام القيمة العادلة.

وربما جاز لي أن أزعم بأن كبرى مثالب عصرنا هي عجزه عن أن يشعل اللهفة في روح الإنسان، أو أن يحرض المرء على القيام بفعل شامخ باذخ يصلح مأثرة قد تستلهمها الأجيال التي لم تولد بعد. وبغير اللهفة فإن الفرد لا يملك أن ينجز أيما إنجاز ذي بال.

وعندي أن الإنسان لن يمسخ قرداً إلا بعد أن يتنكر لشرارة تومض أو تتضرم في اعماق روحه التي هبطت إليه من "المحل الأرفع"، وفقاً لعبارة الشيخ الرئيس، أو لما جاء في البيت الأول من قصيدة "النفس" ذات المحتوى الوجودي المأهول بقلق زرين وتساؤل ريبي هادئ، فما من شيء أنفس من خيط النور الذي يبزغ من غورك النازح القصي. ثم إنك ما لم تنج من كل ما يفلّ الإرادة ويثلم العزيمة في هذا العصر المتدهور، بحيث تتمكن من أن تزوّد الأشياء برعشة من روحك المدّمثة الهيفاء، أو بقطرة من أندائها المنعشة الباردة، فإن الأشياء لن تكون سوى رماد كالح عقيم لا يصلح لاستضافة الحياة.